مرسوم التنصير الإجباري الصادر بتاريخ ١٧ فبراير ١٥٠٢م

Decree Christianization compulsory for the Muslims of the Kingdom of Castile

ترجمة وتعليق

محمد عبد المومن

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
ماجستير في تاريخ وحضارة الأندلس
تطوان – المملكة المغربية

Los codigos Españoles concordados y anatados. Tomo decimo. Novisima Recopelacion de los Leyes de España Tomo IV. Que contiene el libro duodecimo; suplemento e indice. Madrid 1850.

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

مرسوم التنصير الإجباري الصادر بتاريخ ١٧ فبراير ١٥٠٢م/ ترجمة وتعليق: محمد عبد المومن.- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث والعشرون؛ مارس ٢٠١٤. ص ١٢٩ – ١٣١.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

حقوق الملكية الفكرية والترجمة والنشر:

- حقوق الملكية الفكرية محفوظة.
- حقوق الترجمة العربية محفوظة © للأستاذ محمد عبد المومن.
- النقل والاستشهاد وفق الأصول العلمية والقانونية المتعارف عليها.
- غير مسموح بإعادة نشر كامل نص الترجمة العربية إلا بموافقة المترجم.
- المترجم والدورية غير مسئولان عن الآراء الواردة في النص الأصلي.

تقديم

بعد حصار دام ثمانية أشهر، اجتمع أبو عبد الله الصغير النصري بفحص غرناطة مع الملكين الكاثوليكيين،[١] فرناندو،[٢] وإيزابيلا[٣] لتوقيع اتفاقية ٢٥ نوفمبر ١٤٩١،[٤] والتي بموجبها أعطيت للمدينة مهلة شهرين للاستسلام، لتسقط بذلك آخر معاقل المسلمين في الأندلس. تضمنت الوثيقة السالفة الذكر شروطًا، اعتبرت جيدة بالنسبة لسكان المدينة المستسلمة، حيث أعطت لهم حرية العبادة، ونصت على عدم التمييز بينهم وبين المسيحيين من رعايا مملكتي قشتالة وأراغون. وبذلك تحول سكان مملكة غرناطة إلى مدجنين،[٥] مثلما كان حال غيرهم من المسلمين، الذين فضلوا البقاء في مناطقهم، خصوصًا في بلنسية وأراغون وقشتالة.

بعد دخول الملكين الكاثوليكيين للمدينة يوم ٢ يناير ١٤٩٢ ومعهم قوات عسكرية تمركزت أساسًا في قصر الحمراء انقسم سكانها إلى ثلاث فرق؛ فريق اعتنق عقيدة المنتصر أغلبهم من أصحاب السلطة والنفوذ الذي فضلوا الحفظ على مكانتهم الاجتماعية ولو اقتضى ذلك التظاهر بالمسيحية أو التحول إليها بشكل فعلي.[٦] وفريق اختار أن يغادر البلاد نحو دار الإسلام لأن غرناطة وقد تزايدت وتيرة الهجرة مع فتوى الونشريسي (توفي ٩١٤ هـ) المسماة: "أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر".[٧] وأما جمهرة المسلمين الذين أحبط نفوسهم رحيل النخب المثقفة، فقد فضلوا البقاء بأوطانهم، ظنًا منهم أن الإسبان سيحترمون اتفاقية الاستسلام المشار إليها سالفًا.

كان الملكان الكاثوليكيان مجبران على إبقاء سياستهم "المتسامحة" إلى حين، لكن معارضيهما اِدعوا أنه يجب تحويل المسلمين إلى المسيحية لأسباب سياسية أكثر منها دينية. وإجمالاً يمكن القول؛ أن الأمور بقيت مستقرة إلى أن احتل الكاردينال سيسنيروس[٨] منصب رئيس أساقفة إسبانيا سنة ١٤٩٩، وبمجرد توليه المنصب طالب الملكين الكاثوليكيين بالعدول عن سياستهما، لكن الرجل لم يكتفي بالكلام فقط، بل بدأ حركة نشيطة لتحويل المسلمين إلى المسيحية، وقد أدى أسلوبه الفظ[٩] إلى ثورة سكان ربض البيازين،[١٠] وهي الثورة التي امتدت إلى جبال البشرات،[١١] وجبال رندة،[١٢] وأثناء هذه الثورة حاول الملكان الكاثوليكيان استمالة سكان المناطق الجبلية الثائرة وذلك بمنحهم عددًا من الامتيازات، لكن هذه السياسة لم تفلح، فلجأ إلى إرسال قواتهما إلى البشرات، وجبال رندة، حيث حدثت مواجهات مسلحة، قتل خلالها الكثير من الغرناطيين، وتكبد فيها القشتاليون خسائر فادحة. وبالموازاة مع ذلك أصدرت عدد من المراسيم، خصوصا مرسوم يوليوز ١٥٠١، الذي منع على المسلمين بموجبه حمل السلاح.

ومباشرة بعد قمع الثورة أي في بداية سنة ١٥٠٢ (بالضبط يوم ١٧ فبراير ١٥٠٢) - عشر سنوات تقريبًا بعد استيلائهم على مدينة غرناطة – صدر مرسوم التنصير الإجباري، الذي خير مسلمي

قشتالة بين المسيحية، أو المغادرة، أو الموت. وهو المرسوم الذي قمنا بتعريبه، لاقتناعنا بأهميته، بالنسبة للباحثين المهتمين بتاريخ الأندلس عامة، وبتاريخ الأندلسيين الغرباء بشكل خاص.

لغة الوثيقة

في كتابه: "نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين"، ذكر المؤرخ المتميز محمد عبد الله عنان، أنه اطلع على كثير من الوثائق الرسمية والكنسية الإسبانية، لكنه فضل التخلي عن ترجمتها، لسبب واضح وهو طبيعة اللغة التي كتبت بها تلك الوثائق. إن لغة الوثيقة التي قمنا بتعريبها، لغة قشتالية قديمة، أصبحت الكثير من مفرداتها وتراكيبها وقواعدها مهجورة الآن، وتحتاج ترجمتها صبر وإلى معرفة جيدة باللغة الإسبانية، بالإضافة أيضًا إلى إحاطة بجوانب التاريخ الأندلسي والإسباني.

مصدر الوثيقة

نشرت هذه الوثيقة في مدريد سنة ١٨٥٠ ضمن كتاب يضم المراسيم والقوانين التي سنها الملوك الإسبان خلال القرن السادس العاشر، وهي توجد في الصفحتين الرابعة والخامسة من الكتاب المعنون بـ:

Los codigos Españoles concordados y anatados. Tomo decimo. Novisima Recopelacion de los Leyes de España Tomo IV. Que contiene el libro duodecimo; suplemento e indice. Madrid 1850.

وختامًا؛ إن هذه الوثيقة لم يسبق أن ترجمت كاملة إلى اللغة العربية، ونرجو أن نكون قد وفقنا في تعريبها.

مرسوم التنصير الإجباري
الصادر بتاريخ ١٧ فبراير ١٥٠٢

"بالنظر إلى المصيبة الكبرى التي تحدث، والتي طرفها الأول المتنصرون حديثًا، وطرفها الثاني المسلمون من مواطني ورعايا ممالكنا وإقطاعياتنا، وحيث إن هذه المصيبة تضر بالهدف الأساسي الذي بذلنا الكثير من أجله في مملكة غرناطة التي كان كل سكانها من الكفار، وبفضل الرب إلهنا لم يبق منهم أحد، وبذلك أزلنا عن ديننا عار وجود هذه النحلة التي كان يسمح بوجودها في إسبانيا وهذا أمر لم يكن لائق.

ولأن الرب إلهنا قد أذن بتغلبنا على أعدائنا القدماء في زماننا هذا، وهم الذين حاربوا ديننا وحاربوا ملوكنا السابقين وحاربوا ممالكنا، فمن الطبيعي أن نظهر له شكرنا على هذه النعمة الكبرى وعلى سائر نعمه علينا، فلنخرج من ممالكنا أعداء اسمه المقدس، ولا نسمح أكثر بالبقاء في ممالكنا لسكان يمارسون عادات ذميمة، ولنأخذ في الحسبان القضية الكبرى، ألا وهي ارتداد عدد من المسيحيين بسبب مشاركتهم للهود الذين في ممالكنا واتصالهم بهؤلاء، كما أن اتصال المسلمين الذين يعيشون في ممالكنا بالمتنصرين حديثًا خطير جدًا، لأن هذا يمكن أن يؤدي إلى عودة هؤلاء لماضيهم وخطاياهم الأولى- فالنفوس البشرية ضعيفة والشيطان لا ينفك عن محاربة الإنسان - وهذا يحدث بسهولة كما أثبتت التجربة، ورأيناه بأنفسنا في هذه المملكة وخارجها.

فالقضية الأساسية التي يجب العمل عليها، هي التخلص من هؤلاء المسلمين إلى خارج ممالكنا وإقطاعياتنا - ولأن اتخاذ الاحتياطات أفضل من معاقبة الجناة بعد وقوعهم في الخطايا. وحتى لا تقع فضيحة تؤدي إلى طردهم أو إخراجهم رغم كونهم مسالمين ويعيشون بسلام - لهذا وجب إبعادهم عن الناس سواء كانوا صغارًا أو بالغين، وكذلك عن بعضهم البعض تحت التهديد بالعقاب أو التأديب.

لهذا يرى مجلسنا، الذي يضم أساقفة كبار وفرسان وشخصيات أخرى علمية وفكرية، وبعد مشاورات مطولة، أنه يجب إخراج المسلمين من مملكتي قشتالة وليون، وأن لا يسمح بالعودة إليهما. كما يطلب أن تطبق مضامين هذه الرسالة كما هي. وعليه:

فكل المسلمين البالغين من العمر ١٤ سنة فما فوق، والمسلمات البالغات ١٢ سنة فما فوق، واللذين يعيشون في هاتين المملكتين[١٣] سواء كانوا من رعاياهما أو من الذين دخلوا إليهما لسبب من الأسباب وعاشوا فيهما- باستثناء المسلمين الأسرى اللذين يجب أن يكبلوا بالسلاسل ليتم تمييزهم - يجب أن يخرجوا من ممالكنا وإقطاعياتنا قبل نهاية شهر أبريل من العام الجاري ١٥٠٢. ويسمح لهم بأخذ أمتعتهم التي يرغبون في أخذها، لكن يمنع عليهم أن يُخرجوا أو أن يُكلفوا أحدًا بأن يُخرج لهم ذهبًا أو فضة أو أية مواد ممنوعة.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

عليهم أن يخرجوا ويُخرجوا أمتعتهم من موانئ كونطية بيثكايا[١٤] فقط، وليس من موانئ أخرى أو أماكن أخرى. ولذلك نطلب أن تزود هذه الموانئ بموظفين يراقبون ما يخرج عبرها، وفي حالة ضبط أحد أراد إخراج ذهب أو فضة أو مواد ممنوعة، فإنه يعاقب بالموت وبمصادرة كل أمتعته لصالح ديوان الجبايات.

نحظر على هؤلاء المسلمين وعلى غيرهم أن يخرجوا عبر البحر أو أن ينتقلوا برًا إلى مملكة أرغون أو مملكة بلنسية أو إمارة كطالونيا،[١٥] أو إلى مملكة نابارا،[١٦] [١٧] لأننا في حرب مع مسلمي إفريقيا ومع الأتراك، كما يمنع عليهم أن يتوجهوا إلى إفريقيا أو إلى الأراضي العثمانية، تحت التهديد بالموت ومصادرة الأملاك لصالح ديوان الجبايات، لكن يسمح لهم بالتوجه إلى أرض السلطان،[١٨] أو إلى أي مكان يرغبون في التوجه إليه باستثناء الأماكن السالفة الذكر.

نأمر ونؤكد على أن المسلمين المطرودين- سواء كانوا من رعايا أو ليسوا من رعايا الممالك السالفة الذكر - باستثناء الأسرى- يمنع عليهم العودة أو القدوم إلى هذه الممالك، وإلى الأراضي التابعة لها سواء بقصد العيش أو المرور أو بأي نية أخرى منعًا أبديًا، وإذا حدث أن توجدوا وألقي عليهم القبض في إحدى هذه الممالك والإقطاعيات أو دخلوا إليها بطريقة غير شرعية بدون إذن أو تصريح، يحكم عليهم بالموت وبمصادرة أمتعتهم لصالح ديوان الجبايات.

يُمنع على سكان ممالكنا أو أي شخص آخر يقيم فيها أن يستقبل، أو يقبل، أو يأوي بشكل سري، أو علني مسلمًا أو مسلمة من الذين سلف ذكرهم، سواء في منازلهم أو أراضيهم أو في أي مكان من ممالكنا وإقطاعاتنا، ويسري هذا ابتداء من نهاية شهر أبريل المقبل وإلى الأبد تحت التهديد بمصادرة الأمتعة والعقارات والحصون وأية أملاك أو أموال أخرى وتسليم الكل لديوان الجبايات.

تحت التهديد بالموت، يُمنع على المسلمين والمسلمات الأسرى من الاتصال والتحدث إلى من تحولوا حديثًا للمسيحية بأحاديث تمس إيماننا الكاثوليكي، أو يمكن أن تؤدي إلى الارتداد عن عقيدتنا".

الهوامش

(١) الملكان الكاثوليكيان: هما الزوجان، الملكان، فرناندو الثاني من أراغون، وإيزابيلا الأولى من قشتالة .منح البابا إسكندر السادس هذا اللقب لهما.

(٢)**فرناندو الثاني**: (١٠مارس ١٤٥٢ - ٢٣ يناير ١٥١٦) أحد الملوك الكاثوليك، ملك آرغون ثم اسبانيا بعد وحدتها مع قشتالة.

(٣) **إيزابيلا الأولى**: (٢٢ أبريل١٤٥١ - ١٥٠٤) ملكة قشتالة ثم إسبانيا بعد وحدتها مع مملكة أراجون، كانت لقراراتها أثار عظيمة في تاريخ إسبانيا.

(٤) انظر: ترجمة عدد من بنودها في كتاب **دولة الإسلام في الأندلس – العصر الرابع - نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين** – من تأليف محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٩٧، ص ٢٤٢ وما بعدها.

(٥) هم مسلمون لبثوا في المناطق التي استولى عليها المسيحيون، ولم يتنصروا، لكنهم أجبروا على ذلك في أوائل القرن السادس عشر بموجب مرسوم (١٥٠٢/٠٢/١٧).

(٦) للمزيد من التفاصيل، انظر: كتاب محمد عبد الله عنان المشار إليه سابقًا، الصفحة ٣١٥.

(٧) أحمد بن يحيى الونشريسي. **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب**. خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، منشورات وزارة الأوقاف للمملكة المغربية، الرباط، ١٩٨١، الجزء الثاني، ص ١٣٧.

(٨) **فرانثيسكو خيمينيث** دي ثيسنيروس كاردينال إسباني ولد في توريلاغونا ١٤٣٦، وتوفي سنة ١٥١٧، شخصية مهمة ومؤثرة في التاريخ الإسباني، حيث تولى عددًا من المناصب أهمها: أمين سر الملكة إيزابيلا، وكبير المفتشين محاكم التفتيش، ورئيس أساقفة إسبانيا.

(٩) تم التنصير خلال هذه الحقبة بطريقتين: عن طريق التعميد الإجباري كما حدث في غرناطة وبسطة وألمرية ووادي آش أو عن طرق الإغراء كالإعفاء من أداء الضرائب وهذا حدث في البشرات ووادي اللغرين واللنخرون.

(١٠) أحد أرباض مدينة غرناطة النصرية، بني على أنقاض مدينة إلبيرة، يُعدّ حاليًا من أهم أحياء المدينة.

(١١) منطقة تقع جنوب جبال سييرا نيفادا قرب غرناطة في منطقة الأندلس ذاتية الحكم. يقع القسم الغربي من المنطقة في مقاطعة غرناطة ويقع القسم الشرقي منها في مقاطعة ألمرّية.

(١٢) سلسلة جبلية توجد في أقصى الجنوب الإسباني ضمن إقليم مالقة تُعرف بعض أجزائها باسم الجبل الأحمر.

(١٣) المقصود مملكتا قشتالة وليون.

(١٤) إقليم يقع في أقصى شمال إسبانيا يتبع حاليًا لمنطقة الحكم الذاتي لبلاد الباسك.

(١٥) لم يتم إجبار مسلمي بلنسية وأراغون على التنصر إلى سنة ١٦٢٥.

(١٦) كانت نابارا مملكة مستقلة تقع في أقصى شمال شبه الجزيرة الإيبرية على الحدود مع إسبانيا وأصبحت سنة ١٥١٢ تابعة لإسبانيا.

(١٧) صدر قرار التنصير الإجباري في مملكة نابارا سنة ١٥١٢ مباشرة بعد انضمامها للتاج الإسباني.

(١٨) هكذا في الأصل، ولم أتوصل للمقصود بأرض السلطان.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449